كل أحد

وجـــه العـــرب الأمريكي القبيـــح !

شاكر النابلسي

-١-

لكل أمـة وجهـان: وجه قبيح، ووجه حسن.

فالعرب كان لهم وجهان. وجه حسن يتمثل في قيم الكرم، والجود، والشهامة، والفروسية، والدفاع عن المظلوم.. الخ. وكان لهم وجه قبيح يتمثل في ظلمهم للمرأة، ودفن الأطفال أحياء خشية الفقر (لم يقتصر الوأد على الاناث فقط، وانما شمل الذكور أيضا) وفرديتهم، وحبهم للتسلط، وكراهيتهم وعداوتهم للآخر، وعبادتهم للفرد الشيخ والقائد والرئيس والحاكم، وقيمهم السلفية القبلية المتمثلة بالثأر الدموي، وحرمان الأنثى من الميراث وحق اختيار الزوج .. الخ.

والأمريكون لهم وجه قبيح، ووجه حسن كذلك.

وجههم القبيح، يتمثل في سباق التسلح والهيمنة الأمريكية العسكرية (ولعل لها جوانب مفيدة تتمثل في قمع الديكتاتوريات التي لا ولم تقدر على قمعها شعوبها كالنازية والفاشية والشيوعية والصدامية والقذافية.. الخ) وقيام هذا المجتمع الاستهلاكي المسعور سعاراً لا يوصف. ولعل هذا سر من أسرار ازدهار الاقتصاد الأمريكي كما يقول بعض الاقتصاديين. كما يتمثل قبح الوجه الأمريكي في تحويل كل شيء في الحياة الأمريكية إلى (منتج Product) وتحويل أمريكا كلها إلى شبه شركة تجارية كبيرة Corporation تابعا في ذلك الفن والأدب والثقافة والتعليم الذي أصبح تجارة امريكية مشهورة تساهم في الدخل القومي الأمريكي.. الخ. كما يتمثل وجه أمريكا القبيح في انتاج الفن الشعبي من موسيقا واغان ذات الاستهلاك السريع (Fast Art) الذي يشبه وجبات الطعام السريعة.(Fast Food)

أما وجه أمريكا الحسن فيتمثل في قيم التسامح والحرية والديمقراطية واحترام الآخر وقبوله (هناك أكثر من ستين جنسية، وأكثر من عشرة أديان، وأكثر من عشرين عرقا، تنخرط كلها في بوتقة الشعب الأمريكي الواحد) وتدفق المعلومات والتقدم العلمي والتكنولوجي والاقتصادي والتعليمي والفني، ونشر معاهد الدراسات المتخصصة المختلفة، والتبرع لها من قبل المؤسسات ورجال الأعمال، ونشر قيم التعاون الاجتماعي، ونشر قيم السوق الحرة والعولمة.. الخ.

-٢-

كل الأمم والحضارات والثقافات تتلاقح.

الأمم الواعية هي الأمم التي تأخذ من الغير أحسن ما عنده. أي تأخذ الوجه الحسن وتترك الوجه القبيح. عندما امتدت يد الغرب على التراث الاغريقي في عصر التنوير في القرن السابع عشر والثامن عشر، لم يأخذ الغرب من هذا التراث غير الوجه الحسن، وترك الوجه القبيح. أخذ الفلسفة والعلوم والفكر والديمقراطية، وترك الوجه القبيح في المجتمع الأغريقي.

وعندما امتدت يد الغرب إلى التراث العربي لم تأخذ منه كل شيء، وانما أخذت الحسن وتركت القبيح. أخذت منه ما تم أخذه من قبل العرب عن الإغريق. فأخذت منه العلم في كافة أشكاله، وتركت له القيم الاجتماعية والسياسية المتخلفة، لأن هذه القيم تخصه وحده، ولا تخصُ شعباً آخر، ومنها عدم مساواة المرأة بالرجل وضرب المرأة، واجبارها على الاستجابة تحت أي ظرف على النداء الجنسي للرجل وإلا كان مأواها جهنم، وعدم قبول شهادتها وحيدة، وعدم مساواتها بالإرث مع الذكور، وحرمانها من حقوقها السياسية والوظيفية، وتكريسها للعلف والخلف، والسماح بالزواج بأربع نساء في وقت واحد.. الخ.

كذلك فعل اليابانيون عندما بدأوا بالتلاقح مع الحضارة الغربية بالقوة بدءاً من عام ١٨٥٢. فأخذوا علمها وتركوا قيمها الاجتماعية، التي لا تتناسب مع قيمهم.

-٣-

العرب في حاضرهم فعلوا عكس ما فعلته الشعوب الأخرى. فأحبوا الحياة على الطريقة الأمريكية، وأحبوا لباسها وطعامها وشرابها وفنها، ولكنهم أخذوا منها أقبح ما لديها.

فنراهم في فنهم في السنوات الأخيرة، قد تركوا الفن الأصيل وأخذوا بأسباب الفن الهزيل. فظهرت مجموعات ضخمة من المغنين المقلدين للفنانيين التجاريين الأمريكيين الذي حولتهم شركات الانتاج الفني من مشاريع فنانيين إلى (منتجات) فنية، يتحكم فيها المنتج أو الشركة المنتجة. وأخذ العرب بمنهاج المسوخ الفنية. فأخذوا الموسيقا الأمريكية الشعبية الراقصة، وتركوا الفن الموسيقي الراقي. واصبحت أم كلثوم وعبد الوهاب والسنباطي والموجي من تراث الأسلاف الذي لا يسمعه غير كبار السن والدراويش. ولم تعد هذه الأصوات وهذا الفن يمثل الخمسينات والستينات من القرن العشرين، وانما أصبحت الشقة بيننا الآن وبين هذا الفن الأصيل وكأنها قرون طويلة. واستطاعت شركة اعلامية مثل شركة الارسال اللبنانية LBC أن تصنع من ولد كمحمد عطية لا يملك من المقومات الفنية إلا اجادته للرقص المجوج في رأي البعض، والمحبوب لدى البنات المراهقات من صغار السن، النجم الغنائي الساطع في أقل من ستة شهور. كما صنعت شركة (روتانا) وغيرها من شركات تسليع الغناء والموسيقا من عدة (فنانات) و (فنانين) نجوما ساطعة في عالم الغناء الشعبي الراقص، وتلك واحدة من نجاحات الثقافة الشعبية الأمريكية ذات الوجه القبيح في رأي البعض، وذات الوجه الحسن في رأي البعض الآخر الذي يرى أن تسليع Commiditization الفن على هذا الشكل الأمريكي بدءاً من مادونا وجانيت جاكسون وانتهاءً ببريتني سبيرز وجيزي Jayz وغيرهم، من قبل شركات تسليع الانتاج الفني الأمريكي كشركة Jiva في مجال موسيقا (البوب)، وكشركة IDJMG في مجال موسيقا (الراب) وكشركة Newline وشركة Miramax في مجال السينما، هو من مفاتيح العولمة والاطلالة على الحياة الجديدة والمجتمعات الجديدة مما ييسر غداً شق اوتوستراد الحداثة وليس زاروبها في العالم العربي الذي بدأ سياسياً في العراق بعد التاسع من نيسان ٢٠٠٣ ، وبدأ فنياً في لبنان- أكثر الدول والشعوب العربية قرباً من الغرب - من خلال (تلفزيون الواقع Reality TV (الذي هو نتاج امريكي مائة بالمائة، ومن خلال البرامج والمسابقات الفنية التلفزيونية التي هي نسخة طبق الأصل عن البرامج التلفزيونية الأمريكية الفنية (مثال ذلك برنامج ستار أكاديمي الذي هو نسخة طبق الأصل اسماً ومضموناً عن برنامج فرنسي أخذه الفرنسيون عن نسخة طبق الأصل أيضاً لبرنامج امريكي .Idol American

-4-

ومن هنا، بدأت المؤسسات الدينية تهاجم مثل هذه البرامج ومثل هذا الانتاج الفني الذي عدته انتاجاً هابطاً يُسيء إلى الدين وقيمه، ونادت بمنع بث مثل هذه البرامج. وفي الواقع فإن احتقار المؤسسات الدينية ورجال الدين لمثل هذه البرامج نابع من علمهم بأن هذه البرامج وهذا الاقبال الشديد عليها من قبل جمهرة الشباب من صغار السن، سوف يفتح غداً ابواب العولمة وأبواب الحداثة على مصراعيها أمام المجتمعات العربية، ويصرفهم عن جهاد الكفار واللحاق بركب (القاعدة) الارهابي، وهو ما لا تقبله المؤسسات الدينية التي تريد من الشباب التوجّه نحو الجهاد ضد الكفار الأجانب، بدلا من تبني فنهم وتبرجهم.

واعتبرت المؤسسات الدينية أن مثل هذه البرامج مصيبة كبرى حلت بالمسلمين. وقال سعيد أحمد الغامدي عن برنامج (ستار أكاديمي) مثالاً لا حصراً، في موقع على الانترنت (صيد الفوائد) وفي مقاله (ستار أكاديمي وتمزيق الحياء): (مصيبة عظمى وطامة كبرى تضم إلى ما قبلها من البلايا والرزايا، وجب النصح والتذكير أن أنبه على أمر لا ينبغي السكوت عنه، بل يجب الحذر منه والابتعاد عنه وهو مايحصل فى القنوات الفضائيه من خدش للحياء والعفة والكرامة). وفي الكويت صدرت فتوى دينية شهيرة بتحريم غناء النساء وتحريم الاشتراك في مثل برامج (ستار أكاديمي)، وحرّمت الفتوى الصادرة على أي جهة تنظيم حفلات غنائية لصالح ستار أكاديمي ، أو تحت أي اسم آخر إذا تضمنت ممارسات يحظرها الإسلام. كما حرّمت حضور أو مشاهدة مثل تلك الحفلات ودعمها بأي شكل من الأشكال. وقامت ضجة كبيرة في المجتمع الكويتي. وهدد وليد الطبطبائي، أحد عضو مجلس الأمة الكويتي، وأحد كبار الاسلامويين المعارضين للبرنامج بمساءلة وزير الإعلام أمام البرلمان حول هذه القضية. فيما اعتبر كاتب اسلامي هازل أن برنامجاً ك (ستار أكاديمي) كان كمثله من البرامج التي أدت الى سقوط الامبراطورية العباسية! وقد اغتاظ الداعية الديني المصري المودرن الأنيق عمرو خالد الذي يتاجر بالمخدرات الدينية الذي كسب من تجارتها ملايين الجنيهات، والذي يتشبّه بممثل السينما الأمريكي كلارك جيبل والممثل المصري الدونجوان رشدي أباظة من هذا الاقبال الكبير على برنامج (ستار أكاديمي)، بينما لا يحظى برنامجه على قناة (إقرأ) (صنّاع الحياة) إلا بقلة من الشباب الضائع الذي يبحث عن طوق نجاة من خلال ما يبيعه لهم عمرو خالد من مخدرات دينية، على شكل قصص الماضي البعيد المخدّرة التي لن تعود الآن أبداً. وعلى موقع (البوابة الإسلامية) قال إمام المسجد الحرام بمكة الشيخ السديس في خطبة الجمعة: أن برنامج (ستار أكاديمي) سلاح دمار شامل للقيم الاجتماعية. وهو من أسلحة الدمار الشامل لكل أنواع القيم والعفاف والفضيلة مما يسهم بجلاء في خلخلة المنظومة الاجتماعية المحافظة والنسيج الأخلاقي المتميز لهذه الأمة ويفرز آثاراً اجتماعية خطيرة للتمرد عن القيم والانفلات من الأخلاق والمثل. وجاءت تصريحات الشيخ السديس بعد ثلاثة أيام من إصدار هيئة الإفتاء، وهي أعلى سلطة دينية في السعودية والتي يرأسها مفتي المملكة، فتوى تحريم البرنامج الذي تبث تفاصيله طوال ٢٤ ساعة على قناة تابعة لقناة (إل بي سي). وحضّت الفتوى رجال الأعمال الذين يمولون مثل هذه البرامج على خشية الله، وعدم استخدام أموالهم في تدمير شباب الأمة الإسلامية.

-٥-

بالمقابل، كان للمفكرين الحداثيين (الليبراليين) رأي مخالف آخر. (فعلي حرب) المفكر اللبناني يرى وجهاً آخر لهذا التسليع الفني على الطريقة الأمريكية. فهو يرى في مقاله (ستار أكاديمي ونانسي عجرم: ما الذي جنيناه من ثقافة الأعمدة، جريدة السفير ٢٤ / ٦ / ٢٠٠٤) أن (ثمة من يتعامل مع هذه الظاهرة بعين السلب والعداء، إذ يرى بأنها مظهر يدلُ على فقر الثقافة وانحطاط الفن، بل هناك من يتحدث عن (موت الثقافة) وتسليع العقول والأجساد، معتبراً ذلك نتيجة سيئة لعصر العولمة والتقنية. فمن جهتي أنا أقرأ الظاهرة بصورة مختلفة. فالعولمة، بما تعنيه من تشكّل مجتمع المشهد والشبكة والصورة، قد فتحت إمكانات لا سابق لها للتعدد والتنوع والتفرد في مختلف مجالات الانتاج المادي والرمزي. نحن إزاء واقع جديد لا يغني معرفة ولا يجدي عملاً، وصفُه بـ (التفاهة) كما ينعته الكثيرون من أصوليي الحداثة والعقيدة، بأفكارهم الحديدية وذائقتهم المتحجرة، من حيث تعاملهم مع برامج مثل (سوبر ستار) او (ستار اكاديمي) او انتخاب ملكات الجمال. الأجدى والأغنى قراءة الواقع لمعرفة ما طرأ عليه من تحولات، من حيث مشهده ونظامه ومفاهيمه وقواه وادواته. وابرز هذه التحولات هو تغيّر العلاقة مع الواقع والحقيقة، بعد تشكل الواقع الافتراضي والاقتصاد المعرفي وبروز الإنسان الرقمي والفاعل الميدياتي. وما تلفزيون الواقع الا ثمرة من ثمار هذا التحول).

-٦-

راح العرب يقلدون الأمريكيين في المأكل والمشرب والملبس فقط.

فأخذ العرب من الأمريكيين طريقتهم في التهام الوجبات السريعة. فانتشرت مطاعم هذه الوجبات انتشار مطاعم الفول والحمص والفلافل والشاورما. علماً أن لا موجب لهذا اللون من الطعام في العالم العربي. ولكنه التقليد الأعمى العربي للغرب وللأمريكيين على وجه الخصوص. فإذا كانت هناك موجبات أو دوافع لوجود الوجبات السريعة في أمريكا، فهي سرعة حركة الحياة الأمريكية، وكون العامل والطالب والموظف الأمريكي لا يجد وقتاً كافياً لاعداد طعام صحي وجيد. فكان أن تم اختراع أو ايجاد نظام الوجبات السريعة التي تلائم المجتمع الأمريكي السريع الخطوات والحركة أكثر من أي مجتمع آخر.

أما في العالم العربي البطيء الحركة ويمشي مشي السلحفاة، والذي ما زال يقضي نصف نهاره نائماً في العسل الأسود، والنصف الآخر متثائباً يهشّ به الذباب في المقاهي وعلى مصاطب المساء، فما زال الطعام العربي الذي هو تركي في أصله والذي يتطلب اعداداً يطول وقته هو الطعام الملائم نتيجة للحياة العربية ذات الايقاع البطيء جداً.

فكيف نريد من السلحفاة أن ترقص على انغام (الراب) الأمريكي السريع الايقاع، وتأكل الهامبرجور الأمريكي، وتلبس الجينز؟

وهل لا يرى العرب في أمريكا غير ما يعتبره البعض وجهاً قبيحاً؟

انها صورة فريدة وغرائبية تلك الصورة العربية المتناقضة بين الراقصين في برنامجي (ستار أكاديمي) و(سوبر ستار) الذين يغنون للحب وللحياة، وبين الملثمين (المقاولين) المرتزقة الخاطفين للأبرياء والذين يظهرون على شاشات الفضائيات كالخفافيش السوداء في الجانب المظلم من العالم العربي، ويسعون للموت والدمار!

الدولة في القلب

قـــراءة في كتـــاب (عشية أفـــول الإمبراطوريـــة)

جاد الكريم الجباعي

(الدولة في القلب)، ومرض مجتمعاتنا في الرأس، والرأس هو الدولة؛ ذلكم هو أحد أهم الهواجس التي تشغل الأستاذ كريم مروة، في كتابه (عشية أفول الإمبراطورية)*، وبهذا الهاجس يستعيد الأستاذ مروة مفهوم الدولة الوطنية، بما هي تعبير عن كلية المجتمع وتجريد عموميته، وبما هي حقلٌ سياسيٌ مشترك بين جميع مواطنيها المتساوين في الحقوق؛ هذا الحقل الذي هجره الفكر السياسي العربي ردحاً طويلاً من الزمن بفراره من الدولة التي كانت قائمة هنا وهناك في البلاد العربية، وعصفت ببعضها رياح (الثورة) وببعضها الآخر رياح أعتى وأدهى، إلى اللادولة الاشتراكية أو اللادولة القومية أو اللادولة الإسلامية، ويفتح أفقاً جديداً لمشروع نهضوي ينطلق من الواقع إلى الهدف، بعد أن قدمت لنا الهزيمة الجديدة في العراق كشفاً تفصيلياً بحساب ما جنته رؤوسنا وأيدينا.

في كل تجربة سياسية لشعب من الشعوب أو لأمة من الأمم عناصر عامة يمكن أن تتكرر، بل لا بد أن تتكرر في تجارب أمم وشعوب أخرى متخذة صيغاً جديدة وأشكالاً جديدة، بحسب الخصائص الوطنية أو القومية لكل من هذه الأمم والشعوب، كالماء يتلون بلون الإناء الذي يسكب فيه، وهو أحد وجوه ما يسمى (وحدة التاريخ البشري)، لذلك ظلت تجربة انهيار الإمبراطورية السوفييتية والأنظمة الشمولية في شرقي أوربا ماثلة في ذهن الكاتب، تكشف عواملها الرئيسة عن أسباب (مرض الرأس) الذي أصاب مجتمعاتنا فشل طاقاتها الإنتاجية على جميع الصعد، المادية والروحية. وتقابلها بالضرورة تجارب الأمم المتقدمة التي نمّت قواها الإنتاجية وأنجزت ثورتها الديمقراطية وبنت دولها الوطنية، وأسهمت إسهاماً إيجابياً في الحضارة الحديثة وطبعتها بطابعها. مبادئ هذه المنجزات الحضارية الكبرى مبادئ كونية يمكن إعادة إنتاجها وبسطها وإنمائها في غير مكان من العالم، ولا سيما في بلداننا التي تعاني من التأخر والاستبداد وضروب الهيمنة الخارجية أو الاحتلال المباشر. إخفاق هنا ونجاح هناك، لا بد من رؤية الأمور كما هي، ولكن الإخفاق والنجاح كليهما يستحقان النقد، لا بدلالة القيم الإنسانية التي تواضعت عليها البشرية فحسب، بل بدلالة التقدم الممكن والواجب أيضاً، وانطلاقاً من اعتبار الحقيقة مبدأ ومسعى وغاية يرى الأستاذ مروة أن (بدعة الحزب الواحد، التي تسود في معظم بلداننا، منذ زمن طويل، داخل الأنظمة الشمولية، والسلطة الواحدة التي لا تتبدل ولا تتغير، والعقائد والأيديولوجيات الدينية والعلمانية التي تدعي احتكار الحقيقة وترفض الاعتراف بالآخر، جميعها تتحمل المسؤولية عن الظاهرات المرضية التي تعج بها مجتمعاتنا العربية اليوم والتي تشكل عائقاً حقيقياً أمام تحرر بلداننا وتقدمها. ومن دون الإقرار بذلك، بأقصى الجرأة وبأعلى قدر من المسؤولية، وعلى قاعدة المراجعة العميقة للتجارب السابقة، لن يكون بإمكان بلداننا أن تشق طريقها إلى مستقبلها وتتحرر من أزماتها المزمنة) (مروة، ٢٠٠٣، ص ٨١).

ينطوي هذا الكتاب الذي يفتح الشهية للحوار على نوع من مساءلة الذات، أو نقد الذات، المقدمة الضرورية لنقد الواقع، فحين يعمل الناس قصارى ما يستطيعون في سبيل تحقيق أهدافهم، ويضحون من أجل ذلك بالغالي والنفيس، ثم ينتهون إلى مثل ما انتهينا إليه تكون المشكلة في وعيهم لواقعهم، لا في الواقع ذاته، تكون المشكلة في رؤيتهم إلى العالم، لا في العالم ذاته، ولا سيما حين تكون هذه الرؤية ناجزة ونهائية ويقينية كالعقيدة الدينية، وإن أطلق عليها أصحابها اسم (الماركسية) أو (الماركسية اللينينية) أو (الاشتراكية العلمية)، أو (الإسلام القويم)، وكدت أقول: أو الرؤية القومية، فألح في السؤال: ماذا يتبقى من الرؤية القومية العربية إذا جردناها من عناصر الرؤيتين الإسلامية والاشتراكية؟.

لقد عانت مجتمعاتنا ما عانته، ودفعت أثماناً باهظة من أجل لا شيء، ثم انتكست إلى أسوأ ما في تاريخها، بسبب مرضها المزمن في الرأس. لذلك كان الكاتب حازماً وصارماً في نقد الذات (الثورية)، بلا تهويل أو تهوين، بل راح ببراعة وأناة يعيد بناء العلاقة الضرورية منطقياً وتاريخياً بين الثورة والحداثة، مبتكراً لغة جديدة يستهجنها الليبراليون الجدد وكثير من رفاقه الشيوعيين وأصدقائه القوميين.

لم يتنصل الكاتب من مفهوم الثورة، كما فعل كثيرون من اليساريين، بل نراه يستعيد الدعوة إلى الثورة كما لو أنه عاد إلى شبابه أو عاد إليه شبابه من جديد. بيد أن دعوته إلى الثورة ليست هذه المرة باسم الشعار القديم ذاته ولا باللغة ذاتها، ولا (بالفكر الذي كانت اللغة القديمة تعلنه أو تخفيه في موضوع المصطلح وفي مضمونه ودلالاته). ويمكن القول إنه يعيد بناء مفهوم الثورة في ضوء حاجات الواقع وممكناته من جهة، وفي ضوء قيم الحداثة ومناهجها ومنجزاتها، ولا سيما الإنسية والعقلانية والعلمانية والديمقراطية والدولة الوطنية، من جهة أخرى، ويمارس عليه نقداً صريحاً حيناً وضمنياً أحياناً أخرى، ونقد المفاهيم والأفكار والتصورات والتجارب، لا إهمالها أو التنصل منها، على مألوف الخطاب السياسي العربي، من أهم سمات الأصالة الفكرية التي عرف بها كريم مروة، كما عرف بها الشيوعيون اللبنانيون. إعادة بناء العلاقة بين مفهوم الثورة وقيم الحداثة ومناهجها ومنجزاتها تجعلنا نرى عمليات الإصلاح وسيرورات النهوض في جميع مجالات الحياة الاجتماعية على أنها ثورة ديمقراطية لا تزال على جدول أعمال التاريخ في بلادنا.

ما القضايا التي تدعو إلى الثورة؟ يذكر الكاتب ست قضايا متزامنة ومترابطة ومثيرة للجدل والقلق، أولاها تتعلق بلبنان الذي ضمر فيه الشعور بالانتماء إلى وطن حقيقي وإلى دولة وطنية. وإذا كان ضعف الشعور بالانتماء إلى الوطن يقع في دائرة الذاتية، فإن معادله الموضوعي هو ضعف الشعور بالمسؤولية الوطنية في جميع المستويات، حتى ليغدو الوطن أقرب ما يكون إلى (حارة كل مين إيدو إلو). وما يزيد هذا الشعور عمقاً وحدة (الصيغة الراهنة للوجود السوري الأمني والسياسي والاقتصادي في لبنان، وهي صيغة تتخذ صفة ووظيفة الوصاية التي طال أمدها من دون مبرر حقيقي وطني وقومي وإنساني من أي نوع) (مروة ٢٠٠٣، ص٤٩). وهي صيغة تغدو معها القوى المحلية إما استطالات لهذا الوجود أو لغيره، وإما ردود فعل على هذا وذاك. ومن ثم فإن الثورة المطلوبة في لبنان هي بناء الدولة الوطنية، ولا تخفى العلاقة الضرورية بين الوطن والدولة الوطنية الحديثة، الدولة العلمانية التي يتساوى فيها جميع المواطنين أمام القانون، إذ تحيل العلمانية هنا على الاندماج الوطني الذي قوامه تساوي الأفراد في الإنسانية وتساوي المواطنين في المواطنة وحياد الدولة الإيجابي إزاء الأديان والمذاهب والأيديولوجيات والأفكار السياسية. والثانية تتعلق بفلسطين وشعبها، في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي وما يعانيه شعب فلسطين من عدوانية عنصرية منفلتة من عقالها ومعززة بالدعم الأمريكي المطلق. وأعجب كيف لم ير الأستاذ مروة في الانتفاضة الفلسطينية الثانية حرباً إسرائيلية ويأساً فلسطينياً، قياساً بالانتفاضة الأولى، وكيف لم ير في مواقف منظمة حماس خاصة وأساليبها ما يشبه مواقف حزب الله في لبنان وأساليبه، وصيرورته دولة داخل الدولة. والثالثة تتعلق بالاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق، وهو احتلال تسبب به الطغيان والاستبداد الذي دمر العراق وشعبه وثرواته على امتداد أربعة عقود. والرابعة (تتعلق بالاستبداد في بلداننا بصيغه المتعددة). والخامسة تتعلق بالجانب المتوحش من عولمة رأس المال، الجانب الذي يشوه التطور الموضوعي نحو وحدة العالم ووحدة الجنس البشري. وهنا يأخذ الكاتب على حركة مناهضة العولمة عدم تفريقها بين هذا الجانب المتوحش والجوانب الإيجابية الأخرى التي تدفع نحو وحدة العالم وتعميم قيم الحرية والمساواة والعدالة. والقضية السادسة تتعلق بقوى التغيير في بلادنا وفي العالم، وقد بدأت تفقد علاقتها بتاريخها وأفكارها وبالمهمات التي كانت في أساس قيامها، وتفقد من ثم مبرر وجودها.

لبنان، الوطن المشتهى، والدولة الوطنية الحديثة، والنظام الديمقراطي الذي يليق بالكرامة الإنسانية، لبنان بصفاته هذه هو المنطلق والغاية. يقول الكاتب: (لبنان بلدي الذي لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان إلا منه، ولا يوجد مكان عندي للعودة إلا إليه). لبنان هذا، ألا يستحق أن يكون أكثر من مكان؟ ألا يستحق أن يكون وطناً حراً ومستقلاً لجميع أبنائه، ودولة وطنية لجميع مواطنيها؟ تحية لك يا كريم مروة أيها المفكر والمناضل الأممي الحق، الإنساني الحق، هكذا يكون الانطلاق من الواقع مأخوذاً ببعديه الزماني والمكاني، التاريخي والعالمي، وما عدا ذلك شعارات جوفاء لم تثمر سوى الاستبداد وإباحة البلاد والعباد لكل طامع. أيهما أكثر فائدة وجدوى للوحدة العربية، مثلاً، لبنان الطوائف المتحاجزة والعصابات النهابة والولاءات الموزعة بين تأخر الداخل وفساده واستبداده وغطرسة الخارج واستعلائه، أم لبنان السيد الحر المستقل والمجتمع المتسامح والدولة الديمقراطية؟ وأيهما أكثر جدارة وقدرة على مواكبة العصر والإسهام في التقدم العالمي؟ ثم أيهما أكثر واقعية وعقلانية وثورية في المجتمعات المتأخرة والتابعة التي تعاني من استبداد تاريخي مضعف: سياسي وديني، الثورة الديمقراطية التي تندرج رؤية كريم مروة في سياقها أم الثورة الاشتراكية والأممية البروليتارية؟

بخلاف ما درج عليه الخطاب السياسي العربي، يقارب كريم مروة مسالة الدولة الحديثة على نحو شديد الوضوح والإقناع، ويكشف النقاب عن شقاء الوعي السياسي الذي كان ولا يزال يهرب ويتهرب من الدولة الوطنية الممكنة إلى اللادولة القومية أو الاشتراكية أو الإسلامية المتخيلة. الفكر السياسي العربي يعكس الهوة السحيقة بين (الدولة) القائمة بالفعل، على ما أصابها من تآكل وفساد في ماهيتها وبنيتها ووظيفتها، وبين يوتوبيا الدولة القومية، (دولة الأمة العربية) أو الإسلامية، (دولة الأمة الإسلامية)، أو الاشتراكية (دولة الطبقة العاملة التي تصير هي الأمة، بتعبير ماركس في البيان الشيوعي) ، بين الدولة القائمة والدولة الفاضلة، الدولة غير الشرعية والدولة الشرعية. ويمكن القول إن العربي ينتمي ثقافياً وروحياً إلى دولة متخيلة، أما الدولة القائمة بالفعل فلا تعني له سوى كونها عقبة في طريق الدولة المنشودة، تجب إزالتها، ولذلك لم يمنحها أي نوع من الشرعية حتى اليوم، سوى شرعية الأمر الواقع. حتى الذين يتحدثون اليوم عن دولة ديمقراطية، بدون مفهوم الدولة الحديثة، العلمانية، يعيشون نوعاً من طوبى الدولة. و(حينما نقابل وصف الواقع التاريخي بتطلعات الطوبى ندرك تجربة الفرد العربي في مجال السياسة).

يتحدث كثيرون اليوم عن نهاية (الدولة الوطنية) أو الدولة القومية، مع نمو العولمة الرأسمالية وتقدمها، ولكن لم يتحدث أحد بعد ماركس ومن نسبوا أنفسهم إلى الماركسية عن نهاية الدولة ونهاية المجتمع المدني معاً، بل إن ماركس تحدث، كما أزعم، عن نهاية الدولة السياسية، الليبرالية، أو انتفائها جدلياً، بما هي شكل سياسي غير مطابق لمضمونه، وعارضها بالدولة الديمقراطية، التي هي وحدة الشكل والمضمون، أي وحدة المجتمع والدولة. ولم يقل أحد بعد ما هي الدولة التي ستنجم عن تعمق العولمة، وما مصير الدول التي تتآكل سيادتها باطراد في البلدان المتأخرة. وسؤال الدولة هو نفسه سؤال المجتمع المدني. المسألة تتعلق، على ما يبدو لي، بصفة الدولة أو صفاتها وتحديداتها المختلفة، لا باختلاف العلوم الوضعية التي تناولتها، كعلم الاجتماع وعلم السياسة وعلم القانون والأنتروبولوجيا، واختلاف مناهجها، فحسب، بل باختلاف المنظومات الفكرية، من ليبرالية وماركسية ووجودية وبنيوية وفوضوية، والمنظومات الأيديولوجية من قومية واشتراكية ودينية، ولا سيما الإسلامية منها. وكل صفة هي حد وفرق يضع تعارضاً، وينشئ جدلاً، ويثير جدالاً. والجدال، لا الجدل، أي الديالكتيك، هو السمة الغالبة على الفكر السياسي العربي في موضوع الدولة، وهو جدال حول الصفات، فحسب، لا حول الموصوف الذي قلما يعبأ به المتجادلون والمتساجلون. ولا بد أن نلاحظ أن الصفة عندنا تأكل الموصوف أو تستنفده، بخلاف منطق لغتنا العربية. والجدال حول الصفات يحيل على الطابع الأيديولوجي للخطاب السياسي من جهة، وعلى عجزه عن تجاوز حدود الوضعية الإيجابية التي تحولت لديه، بحكم الطابع الأيديولوجي ذاته إلى مذهب وضعوي.

الدولة القومية والدولة الاشتراكية والدولة الإسلامية هي شعارات الفكر السياسي العربي، وشعارات الحركة الشعبية، بعد الحرب العالمية الثانية خاصة، والقومية العربية والاشتراكية والإسلام، على ما بينها من تداخل واختلاط، هي مضامينه. السياسة، بما هي فاعلية المجتمع وعلم الدولة، وبما هي معطى مدني، خارج اهتماماته. حضور السلطة الوحشية (الطبيعية) المباشر والكثيف في جميع مجالات الحياة الاجتماعية وفي تفاصيل الحياة الشخصية للفرد حجب فكرة الدولة المبهمة والمعقدة. تحويل المجتمع إلى أرقام إحصائية وإلى قطعان، وتحويل الأفراد إلى كائنات توتاليتارية حجب فكرة الدولة. إدماج جميع مجالات الحياة الاجتماعية في مجال واحد هو مجال السلطة الشمولية التي لا يخرج من دائرتها شيء أنتج تطابقاً وتماهياً بين السلطة والدولة. جميع أفراد الشعب متساوون في كونهم لا شيء، إذن، ليس هنالك دولة وليس هنالك أمة وليس هنالك شعب. لذلك كله، ولأسباب أخرى كثيرة، ليس أقلها اختفاء الدولة في العراق مع اختفاء صدام حسين واحتمال اختفائها في بلدان عربية أخرى، بات واجباً علينا أن نهتم بفكرة الدولة قبل أي صفة أخرى من صفاتها. لكي نعيد تعريف السياسة بأنها شأن عام وفاعلية مجتمعية، وعلاقة مزوجة ذات اتجاهين: من الأدنى إلى الأعلى ومن الأعلى إلى الأدنى. الدولة أولاً وأساساً، وجميع صفاتها الأخرى تابعة. أعتقد أنني أقترب من نفس كريم مروة ومن نفسه، وأرجو أن يكون الأمر كذلك، وإلا أكون قد غلّبت هواي. وما يرجح الاحتمال الأول أن الدولة عند كريم مروة (بعكس ما ينظّر له عتاة الرأسمال المعولم، هي حاجة موضوعية لتأمين الانتظام الاجتماعي، لكن بشرط أن تتحول بصورة كاملة إلى دولة ديمقراطية حديثة، دولة مؤسسات وقوانين، لكي تكون مؤهلة للتعامل مع المجتمع في تحقيق تلك المهمات المشار إليها. ولن يتم ذلك في بلداننا على النحو الصحيح إلا بفصل الدين عن الدولة) (مروة ٢٠٠٣، ص ٤٤)

ولكن، قبل الدولة الديمقراطية التي يلح عيها الكاتب هنالك الدولة السياسية، بتعبير ماركس، أو الدولة الحديثة، في معارضة الدولة القديمة التي يذكرها الكاتب في عدة مواضع، هنالك دولة الحق والقانون، دولة جميع المواطنين، هنالك الدولة بما هي تجريد العمومية والتي تتجسد في مؤسسات تشريعية وتنفيذية وقضائية لكل منها استقلالها النسبي المؤسس على تمايز مجالات الحياة الاجتماعية واستقلالها، ولكل منها وظائفها التي تؤلف مجتمعة (وظائف الدولة). الديمقراطية في بلادنا ليست في أمر اليوم، لأننا لم ننجز بعد مقدماتها الضرورية، وفي مقدمها الدولة السياسية بما هي تجريد العمومية وتحديد ذاتي للشعب. فلا يمكن إلغاء الطائفية السياسية من دون علمنة المجتمع وفصل الدين عن السياسة وإعادة بناء العلاقات السياسية على مبدأ المواطنة وتساوي جميع المواطنين في الحقوق. المواطن، بما هو فرد مجرد من جميع صفاته ومحمولاته غير السياسية، هو أساس الدولة، والفرد الطبيعي بجميع صفاته ومحمولاته هو أساس المجتمع. تعريف الدولة بأنها تجريد العمومية هو ما يؤكد علمانيتها وعقلانيتها وكونها وطناً سياسياً لجميع مواطنيها، بغض النظر عن خصائصهم الفردية وانتماءاتهم المختلفة ومحمولاتهم المتباينة. وهذا في اعتقادي من أهم الملفات التي يفتحها الأستاذ مروة ويقتضي كل منها حواراً فكرياً وسياسياً يستعيد قيم الحداثة المغدورة وأفكارها ومبادئها ومناهجها، وأهمها الديالكتيك، ذروة العقلانية.

هل يؤدي إصلاح الدولة القائمة بالفعل وجعلها دولة وطنية حديثة، وفق النموذج السائد عالمياً، إلى تعزيز (القطرية) وإعاقة المشروع الوحدوي أم العكس؟ وهل في ذلك مخرج من الاستبداد الذي تعاني منه مجتمعاتنا منذ قرون؟ وهل في إطلاق فاعلية هذه المجتمعات الإنتاجية والإبداعية على جميع الصعد الاقتصادية والثقافية والسياسية والأخلاقية ما يحصن هذه المجتمعات ويستأصل منها جذور (القابلية للاستعمار) التي لا تنمو إلا في تربة الاستبداد؟ أليست الدولة الوطنية الممكنة واقعياً، لأنها تحقق مصالح جميع الفئات والشرائح الاجتماعية، وإن بنسب متفاوتة، مخرجاً وحيداً من المحاصصة الطائفية، أو من الاستئثار والاحتكار وتحكم الطغم والمافيات والسلطات الشمولية؟ هذه الأسئلة وغيرها يطرحها كريم مروة صراحة أو ضمناً، ويجيب عن بعضها إجابات لا تستنفد أياً منها، ولكن الأسئلة تظل مشرعة ومفتوحة.

* - كريم مروة، عشية أفول الإمبراطورية، أسئلة حول موقعنا في عالم الغد، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣